



الفجر الغرباء المؤمنسون

هاشم غرايبة/ الأردن

مقدمة

يَزْدَادُ فِي الشُّعُورِ بِنُوعِ مِنَ الْإِثْيَابِ، بِأَنَّيْ ذَلِكَ
الْغَجْرِيِّ الَّذِي يَعْرِضُ أَصْعَبَ الْأَلْحَانِ عَلَى وَتْرَيْنِ
مَشْدُودِينَ عَلَى عِلْبَةِ صَفِيحٍ، وَأَنَّ الْغَرِبَةَ الَّتِي
يَعِيشُهَا هِيَ غَرِبَتِي أَيْضًا.

قَلْتُ لِنَفْسِي: "لِي أَكْتُبَ مَا قَرَأْتُهُ عَنْهُمْ، وَمَا
عَشْتُهُ مَعَهُمْ، وَمَا رَوَاهُ لِي أَصْدِقَائِي الْغَجْرُ، لِأَنَّ
مَنْ أَنْ أَكُونَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فِي الْمَتَاهَةِ ذَاتِهَا، وَأَنْ
أَنْعَلِمَ كَيْفَ يَسْجَعُونَ، وَيَقُولُونَ جُمَلًا مُتَوَازِنَةً
مُتَقَابِرَةً فِي الْإِيْقَاعِ، وَكَيْفَ يَتْلَعِبُونَ بِالتَّرَادُفِ
وَالنَّبْرَةِ، وَيَتَحَايِلُونَ عَلَى السَّمْعِ بِالْجُمَلِ الدَّعَائِيَّةِ
وَالْإِعْرَاضِيَّةِ الْمَكْرَرَةِ بِاخْتِلَافِ الزَّحَافَاتِ وَالْعَلَلِ..."
وَلَأَنَّ التَّرْجُمَةَ وَالتَّنْصِيْفَ وَإِعَادَةَ التَّحْرِيرِ دِيدِنَهَا
خِيَانَةُ الْأَصْلِ، فَلَا مَنَاصَ مِنْ إِثْبَاتِ هَذِهِ الْإِشَارَةِ:
دَاخِلَ كُلِّ كَاتِبٍ هُنَاكَ رَاوٍ وَمُسْتَمْعٌ، مِمْتَلٌّ وَمُتَفَرِّجٌ،
مَبْدَعٌ وَنَاقِدٌ، مَجْتَهِدٌ وَنَاقِلٌ... وَيَحْدُثُ أَنْ تَخْتَلِطَ
الْأَدْوَارُ.

تجربة خاصة

أَعْرِفُهُمْ مِنْذُ نَعُومَةِ أَظْفَارِي، وَأَتَذَكَّرُهُمْ مِثْلَ
خِيَالَاتِ حُلْمٍ عِنْدَمَا كَانُوا يَأْتُونَ إِلَى قَرِيَّتِنَا بَعْدَ
(أَطْيَارِ) الْبِيَادِرِ، فَيُخَيِّمُونَ فِي سَاحَةِ الْقَرْيَةِ، وَيَقُومُ
كِبَارُهُمْ بِتَطْيِيرِ الْحَمَامِ مِنْ قُبَعَاتِهِمْ، وَيَنْفِخُونَ
النَّارَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَيَسْتَخْرِجُونَ الْبَيْضَةَ مِنَ
مَوْخَرَةِ الْمَخْتَارِ...

أَتَذَكَّرُ شَيْخَهُمْ (الْهَبْرَ) وَهُوَ يَضْرِبُ الطَّبْلَ فِي
الْحَارَاتِ لِيَجْمَعَ النَّاسَ كِبَارًا وَصَغَارًا ذَكَورًا وَإِنَاثًا
فِي سَاحَةِ الْقَرْيَةِ لِيَتَعَجَّبُوا مِنْ قُدْرَةِ فَتْيَاتِهِمْ
عَلَى الرَّقْصِ عَلَى الْحِبَالِ، وَمَهَارَةِ شَبَابِهِمْ عَلَى
الشَّقْلِبَةِ فِي الْهَوَاءِ، وَمَهَارَةِ كِبَارِهِمْ بِتَرْقِيصِ الْكَلَابِ
الْمَسْرُوجَةِ، وَتَقْدِيمِ الْعُرُوضِ الْمَسْرُجِيَّةِ مَعَ
الْقُرُودِ: اعْجَنَ عَجِينَ الْفَلَّاحَةِ. أَحْصَدَ مِثْلَ الْحِصَادِ
الشَّاطِرِ. نَمَّ نَوْمَةَ الْعَجُوزِ. وَيَدَهُنَ أَحَدُهُمْ ذَقْنَهُ
بِاللَّبَنِ لِيَقُومَ الْقَرْدُ بِدَوْرِ الْحَلَّاقِ وَيَلْحَسُ اللَّبْنَ عَنْ
وَجْهِهِ...
أَتَذَكَّرُهُمْ صَبِيًّا عِنْدَمَا كَانُوا يَحْطُونَ أَحْمَالَهُمْ،



وينصبون خيام الخيش في الأرض البور، فيسارع أهل القرية ليضربوا الدّاشر من دوابهم، والمتطرّف من متاعهم، والسّارح من دجاجهم... هاتفين محدّرين ومرحّبين: "جاء التّور".

مرحّبين، لأنّ التّور كانوا جزءاً من دورة الإنتاج في المجتمع، فعلى الرغم من الحذر والتحوّط من سرقات بعضهم، وجرأة نسائهم، إلا أنّ القرية بحاجة لخدماتهم، فهم حدّادون مهرة، يصنعون قيّد الفرس ولجامها، وقفل البئر، وجرس الرّقبة للغنم والبقر، ويصلحون سكّة الحراثة ويصنعون المذاراة والشاعوب، ويقومون بأعمال السّمكرة، وتركيب الأسنان، ونساؤهم تبيع لنساء القرية الإبر ومحافير الكوسا، والخرز الملون وخلاخيل الفضة، ويرمين الودّع ويقرآن البخت، ويشمّن وجوه النساء

بالأزرق والأخضر، ويخرمن أذان البنات لاستقبال الأقرط، وتزيّن أنوف الفتيات بحلقات الذهب. هل أتحدّث عن البرامكة الذين كانوا يطوفون القرى بفحولهم المطهّمة لتحسين نسل الخيول والحمير والبقر؟

هل أتحدّث عن الغرابليّة الذين يصنعون الغرابيل بأنواعها ومشتقاتها من جلود وأمعاء الحيوانات، ويصلحون التالف منها؟

هل أتحدّث عن أهل الطّبل والمزمار والرّيابة المشدودة على (قلن) من الصفيح...؟ نزل فريق منهم قرب الطريق العام لقريتنا وكانوا يقيمون اللّيالي الملاح، وكثّاً نحن الفتيان آنذاك نتلصّص عليهم متردّدين بين الرغبة بالاقتراب والخجل أو الخوف من الأهل والوشاة.

هل أدّعي بأنّي أعرف أسرارهم؟ طبعا لا، ولا أفهم إلا القليل من كلامهم، ولكنني أفهمهم بالقدر الذي احتجته في هذه المقالة، فالأسرار ليست بوحاً مباشراً فقط، واللّغة ليست كلماتٍ حسب.

عَجْر بلادنا

على أرض الواقع لا نستطيع أن نتحدّث عن أعراق وهويّات عند العجر، فهويّتهم واحدة (التيه)؛ فأينما حلّوا: هم الغرباء الرّحل، والغرباء الرّحل ليسوا عرقاً واحداً، بل هم مزيج من الغرباء المهاجرين والغرباء المحليين، ولغتهم غير مكتوبة وليس لها أبجديّة واضحة. فهي تتكوّن وفقاً لمكان تواجدهم خليطاً من لغة المهاجرين ولغة السكان المقيمين. وفي ظلّ غياب التّدوين عندهم لا نستطيع أن نتحدّث عن لغة عجريّة واضحة

المعالم. ولكن نستطيع رصد لغة جسد مشتركة، ويمكن رصد الإشارات والعلامات "سيميائياً" لفهم أسرار الخطاب المتداول بينهم. واستبطان ما خفي من أفكار خلف لغاتهم وسلوكياتهم، تلك اللغة البدائية المحملة بالتأويلا والأسرار، ومكنونات العقل الباطن.

قالت لي "ناعسة" التي تعرّفتُ عليها عام 2018: "باي عليك يا حاج باي... نحن تركمان، التّور لا يطاقون".

أخفيتُ سخريتي، ومددتُ ساقِي: نَور. عَجَرَ. تركمان. برامكة. قريبا. كاويّة. زطّ... بنو مزة. غرابليّة. خلباص. قرج.. هذه التفاصيل لا تهمني، بالنسبة لي: الكلّ زطّ، مساواة محقّقة، تنفي الفوارق بين الجار والجار؛ كما قال شاعرنا الكبير عرار.

يقول حنا عبود في مقالة له في صحيفة "الاتحاد" تاريخ 13/12/ 2014 بعنوان "العجر أبناء الأسطورة":

"استمعتُ إلى قارئات الكفّ، وضاربات الودّع، والبصارات، وسمعتُ كلمات معالج الأسنان، وبائعات الحَرَز والودّع، والشحادات، والمنشدين، والرّاقصات... بعدة لغات، ومن كل الفئات والمناطق: الغوازي في مصر، التّور في بلاد الشام، الكاويّة في العراق، أو أيّ تسمية أوروبية كالزطّ والقرباط والرومني، سمعتُ السّجع ذاته، والحكايات ذاتها، ورأيتُ العادات والتقاليد ونمط العيش واحدة في جذرها، فعندما يلقاك العجريّ مرحّباً في باب خيمته التي فضّلها على الأبنية التي قدّمها الحكومة في بلاد بعيدة، فتركها للريح تلعب فيها، تجده هو العجريّ الملتزم بنمط عيش واحد أينما كان، ومهما كان اسم قبيلته".

لا يختلف العجر في الأساسيات من نمط العيش، فالعجر عندنا وعند غيرنا يرتبطون بحبل سريّ واحد من أنماط المعيشة والسلوك والأخلاق وعشق الفنون، وهم يتّخذون دين المكان الذي يحلّون فيه، ولكنهم أبداً تحت تأثير أساطيرهم القديمة، فمنهم من يرغب بتبرير خروجه على التّمط السائد) بأنه يحمل وزر الخطيئة الأولى،

خطيئة قابيل الذي قتل أخاه هايل:

"مَتَى عَمِلْتَ الْأَرْضَ لَا تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. نَائِهَا وَهَارِبًا تُكُونُ فِي الْأَرْضِ"، على ما جاء في سفر التكوين 12. وأشار العجر أنفسهم بصورة مخادعة إلى أنّ التسكّع في الأرض هو لعنتهم "المقدّسة". وهناك من لا ينسبهم إلى قابيل ويدّعي أنهم





حُكم عليهم بالتيه والتشرُّد؛ بسبب الخطيئة التي جاءتهم لأنَّ أحد أجدادهم صنع ثلاثة مسامير من المسامير التي دُقَّت في جسد المسيح على الصَّليب.

وفي مصر يعتقد بعض الغجر (ويطلق عليهم أيضًا الهنجرانيَّة، والغوازي، والمساليب) أنَّ (التيه على الطرقات) كان هربًا من خطيئة أجدادهم الذين كانوا في مصر وعزفوا عن استقبال مريم العذراء وابنها، بل ناصبوهما العدا.

عندنا في الأردن يعتقد (التَّور) أنهم من بني مرَّة، قوم جسَّاس المطرودين الذين ضُربت عليهم شروط العيش القاسية وارتضوها. تقول الملحمة العربيَّة الشهيرة إنَّ "الزير السالم" انتقم من بني مرَّة، ثأرًا لأخيه كليب سيِّد تغلب، بعد حرب دامت أربعين عامًا، وانتصاره على بني بكر قوم جسَّاس

أقرب إلى هاييل الراعي المرتحل طلبًا للماء والكلاً. ذاك القتل الذي أنكَرت سلالته الرِّوايات. وخسر معركته، فتاه أحفاده في الأرض بلا أسطورة تحميهم، بلا معارك ولا انتصارات توجِّج لحمتهم، بلا مدوِّنة تمنحهم حقَّ المثل في تاريخ البشر.

الأوطان تصنعها الحكايات، والمدوِّنات لتأييد الانتصارات. والغجر بلا حكاية يتوارثونها، ولا انتصارات مدوِّنة.

(نحن الغجر

أحفاد هاييل المجهولين

أبناء الحكاية المنسيَّة

سرَّ السراب

عشَّاق الشمس

كالظِّل، ببطء نعبر الحياة).

غجر أوروبا ممَّن دخلوا المسيحيَّة، يظنُّون أنه



صروح ولا أطلال ولا كنائس أو أماكن عبادة، إنهم جاؤوا ليجوبوا القفار. لا أصل لهم سوى عاداتهم وتقاليدهم.

معظم الدراسات الأثروبولوجية تقول إنَّ منبت العجر هي بلاد الهند، وتقول إحدى الحكايات الشعبية إنَّ الخليفة العباسي هارون الرشيد جلب العجر من الهند للغناء والرَّقص وتقديم ألعاب الخفة احتفالاً بانتصاراته، ثم أقطعهم أرضاً ومنحهم قمحاً وشعيراً وثيراناً كي يضمن إقامتهم ويكفوا عن الترحال، لكنهم أكلوا الثيران وباعوا القمح والشعير وثاروا على ابنه المأمون وعاثوا في البصرة فساداً، فسحق المأمون ثورتهم وحرَّم عليهم ذبح المواشي، كما حرَّم عليهم البصل والثوم والفجل والكراث، والغريب أنَّني سألتُ أصدقاءً من التَّور والترکمان، فأكدوا لي أنَّهم لا يذبحون الماشية، لكنهم يأكلون لحمها إذا ذبحها غيرهم، كما أنَّهم لا يأكلون البصل والثوم والفجل، وقالوا لي: إنَّك لا تجددها في بيت عجريّ حتى لو تمدَّن وسكن بيتاً!

بن مرّة، فأمرَ بتشتيتهم في الأرض، وحرَّم عليهم ألاّ يركبوا خيلاً ولا يذبحوا ماشية ولا يسكنوا سقفاً..

العَجْر عندهم

هل يمكن المزج بين الخطيئة الأولى وقبول جريرتها إلى الأبد؟ وهل هؤلاء العجر بحاجة لخطيئة أو ذريعة ليتوهوا في الأرض غرباء منبوذين؟ تقول "إيزابيل فونسيكا" في كتابها (سيرة العجر) الصادر في دمشق عن دار تكوين ترجمة عابد إسماعيل: العجر ليسوا بقايا شعب ولا أقلية أو طائفة ولا أتباع ديانة منسية، هم جماعة، يُقال إنَّ هجرتها الأولى انطلقت من شمال الهند، ثم انشطرت إلى جماعات اتَّخذت من الترحال مصيراً.. هم قبائل بلا هوية توحدتهم، ولا قومية تجمعهم، ولا وطن يحلمون بسيادته أو بالعودة إليه يوماً. مجموعات آمنت أنَّ كل الأرض وطنهم وأنَّ التسكُّع لعنتهم. ليس للعجر أبطال ولا أساطير عن التحرُّر العظيم وعن تأسيس الأمة وعن الأرض الموعودة. ليست لديهم أضرحة أو

العجر الشفويّ إلى لغة البلاد التي دُوّنت فيها، ثم تُرجمت إلى لغة ثالثة أوسع انتشاراً، ووصلتنا مدوّنة باللغة العربيّة عبر أربع أو خمس خيانات للنص الأصلي!

الثقافة والعَجْر

في بلادنا، نجد الكثير من الفيديوهات التسجيليّة والأفلام السينمائيّة التي صوّرت مقاطع من حياة العجر أو كان العجر جزءاً من حكاية الفيلم، نجدها قد تُرجمت تصوّرات من أعدّ الفيلم أو الفيديو. كذلك الحال مع ما دُوّن من أغاني العجر وحكاياتهم... وهنا أستحضر تجارب من الأغاني المشتركة بيننا وبين العجر، على سبيل المثال نتحدّث عن أغنية (يا عنيد يا يابه). عُرفت الأغنية عند (الكاوليّة) في العراق وغناها حضير أبو عزي، وغنّتها سليمة مراد، وغناها عبده موسى في الأردن، وتلاههم كثيرون وكثيرات بألحان مختلفة وكلمات تطول وتقصّر، وتبدّل المفردات، وتُضاف مقاطع وتُدّمج أحياناً مع مقاطع من أغاني أخرى، ثم يعود العجر القادمون من شمال سورية والمخيّمون شرق قريتي حوارة فيغنونها بأحدث ألحانها وكلماتها.

لا شك أنّ الكتابة عن العجر جذبت كثيرين من المغرمين بالسرد والإنشاد والشعر والرقص والموسيقى الأوسع خيالاً، فصارت الكتابة عن العجر، أو الكتابة باسمهم لها جماليّاتها الخاصّة، لأنّها بالتقاطاتها اللامرّيّة خلقت مستوى جديداً للمعنى وللمعرفة وللمخيّلة وللذائفة، وصارت لدينا مدوّنات تفيد في التقاط أوجه التّشابه في

يقول الأنثروبولوجي الإنجليزي "جاك غودي": "منقو المجتمعات التي لا تعرف الكتابة هم المنشدون والخطباء وساردو الحكايات والأساطير والعرفّون الذين يقرأون البخت من خلال قراءة العلامات القريبة والبعيدة ويتنبأون بالمستقبل". هؤلاء الفنّانون الشفاهيّون من المنشدين والحكواتيّة، والعرفّين الذين يبهجون مجتمعاتهم بالتكرار والتحوّل والتحوير بما يلائم المتلقّي، يتمتّعون بهامش من الحرّيّة والإبداع في تطوير وتجويد المنتج الشفويّ، وفي الوقت نفسه يسوقون سجعهم وإيقاعات كلامهم وفق أشكال سابقة، وقوالب مألوفة في مجتمعاتهم ليوهموا سامعيهم بأنهم باقون في صميم ثقافتهم، معتمدين على أساليبهم الخاصّة في التّشويق، ومساهماتهم الخفيّة في تجويد النص والإيقاع. إذن، نحن أمام سرديّات شفويّة متموّجة متغيّرة، مادّتها الأولى قابلة للتشكّل من جديد عبر الرّمان والمكان.

العجر لا يدوّنون تاريخهم وحكاياتهم وأساطيرهم وأغانيتهم، فالتّدوين لا يشكّل جزءاً كبيراً من هذا التراث الفني العظيم للعجر عمومًا، ولكنني لمسّ تشابهًا في المواضيع، وشيئًا مشتركًا في أنماط السرد والإنشاد في كتابين عن حكايات العجر هما (الأمنيات الثلاث) و(صانع الساعات)، التي جمعها "فرانسيس غروم" وترجمهما يوسف رخا، وصدرا عن دار كلمة في أبو ظبي عام 2009. وكتاب "هانزيكون فويكت" (أغاني العجر) ترجمه نامق كامل، دار المدى- دمشق 2006.

وهكذا نجد أنفسنا أمام مدوّنات مترجمة عن كلام

أنماط الحياة الغجريّة، والتفنُّن في إعادة بنائها، واقتراح شكل عرضها، واختيار الفصاحة اللغويّة والموسيقىّة والإيقاعيّة التي تلائمها، ولهذا صعد الغجر إلى السماء عند "غوري"، وظهرت "إزميرالدا" عند "فيكتور هوغو"، وتجلّت "كارمن" في "أوبرا بيزيه"، وجاء الغجري "ميلكيداس" بقلب الثلج إلى قرية "ماركيز" المعزولة، فظنّه أهل "ماكوندو" كومة من الإبر اللامعة، وظهر الغجر في أشعار "عرار" و"لوركا" و"بوشكين" و"أراغون" و"بودليير"...
طبعًا، نستطيع أن نلمس وشائج قويّة بين حكاياتهم وأساطيرهم وحكايات وأساطير الشعوب التي يلتحقون بها أو يعيشون في كنفها، ونرى أثرهم باديًا في كل التقاليد الأدبيّة والفنيّة عند الشعوب التي حطّوا رحالهم فيها.
إنّ الغجر الرّحل، الذين لا يمكث مخيمهم أكثر من فصل من الفصول الأربعة في المكان ذاته، لعبوا دورًا مهمًّا في التّثاقف بين الشعوب أيضًا.

جيسولوجيا

وإذا كنّا نستعين بهؤلاء الغجر البسطاء، من غير أن نتعمّق في تقاليدهم، فقد ظهر اليوم علم "الجيسولوجيا" الخاص بدراساتهم من جميع النواحي، ممّا يستدعي إعادة التّظر في موقفنا الشعبي (يسعدهم ويبيدهم)، والتّظر إليهم بعين الجدّ والاحترام، فليس سهلًا أن أرى غجريًّا عمره خمس سنوات يعزف أصعب الألحان على وتر مشدود على (قلن) صفيح، وينشد بلكنته الخاصّة الأغاني الجميلة التي قد تعود إلى عشرات السنين، دون أن يغريني في البحث عن عمق هذه

الموهبة، وشجرة هذا التجلّي الإنساني المهمّش.

المراجع

- * الأبجديات الثلاث، اللغة والعدد والرمز، تأليف كلاريس هيرنيشميت، ترجمة د. جمال شحيت، هيئة البحرين للثقافة والفنون، المنامة، 2016.
- الغجر أبناء الأسطورة، حنا عبود، مقالة في صحيفة الاتحاد الإماراتية، أبوظبي، 2014/13/12.
- * (الأمنيات الثلاث) و(صانع الساعات)، جمعها فرانسيس غروم، ترجمة يوسف رخا، دار كلمة، أبو ظبي، 2009.
- * هانزيكون فويكت، أغاني الغجر، ترجمه نامق كامل، دار المدى، دمشق، 2006.
- * الغرباء العرقيّون، وجهات نظر جديدة حول القبائل المتجوّلة في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا، جوزف بيرلاند، بريجر ناشرون، لندن، 1978.
- * CUSTOMARY STRANGERS: NEW PERSPECTIVES ON PERIPATETIC PEOPLE IN MIDDLE EAST AFRICA AND ASIA. 1978 (JOSEPH C. BERLAND)
- * الحاجة الناعسة: مخيم التركمان، شرق حوار، بجانب سوق الجمعة.
- * حميد كيا ورشاد خاشوقا، حميد نوري يملك حافلة ركّاب نوع كيا، ورشاد خاشوقا يملك بكم تويوتا دبل كابين، وهما متخصصان بنقل التّور وترحيلهم من مخيم إلى آخر.
- * تكيف الغجر: دراسة أنثروبولوجيّة عن الكاويّة في العراق: د.حميد الهاشمي، دار المدى، بغداد، 1995.